

## متحف القرون الوسطى

المغرب الجديد

السنة الثانية - العدد الحادي عشر - فاتح ربيع النبوي عام 1355

تستطيع أن تزور هذا المتحف فلا تجول فيه جولة قصيرة حتى تتصل بالقرون الوسطى اتصالاً وثيقاً وتتعرف إلى هذه العصور التي خبأ التاريخ معالمها ودرس الدهر آثارها ولم يحفظها إلا هذا المتحف الذي يغني عن أشد الدروس وأساليب البحث في التعرف إلى خبايا ذلك العهد، وهو لا يمثل ناحية واحدة من الحياة، بل يمثل ما تشاء وما لا تشاء من الصور، فإذا زرته كنت على يقين أنك تستفيد وأنت ستصادف في معروضاته ما يفسر لك المخفى أو المبهم من أية جهة تتساءل عنها أثناء درسك لهذه المرحلة من تاريخ الإنسانية. متحف امتلاً بمعروضات يقصده الفوج إثر الفوج، فلا يجتاز المرء بابه حتى يغفل أنه من أبناء القرن الحالي وينسى أنه يعيش في عصر التطور يناقض المرحلة التي وصلت إليها البشرية في الزمان الذي يمثله هذا المتحف. يغمر زائر المتحف بمشاهدة أصناف هذه المعروضات فيتلهى بقسم ويعتبر بقسم ويستغرب أقساماً: يقف أمام هذه المجموعة من المعروضات فإذا هي تبين عن نفسها وإذا هي تنطق - إن نطقت - عن غريب العادات وبعيد التصورات ومدهش الأحلام والغايات، تنطق عن كل شيء يتصل بالحياة في شؤونها الساذجة، وتياراتها الخافتة، وديبها الهادئ المتعثر السير، ومثلها المتهدمة الأطراف المشوهة الخلق.

فالحياة في هذا المتحف لا تعترف بالتطور، بل إنها تهزأ من كل هذه المراحل التي قطعتها المدينة بعدها، ومهما سعت قاعة الدرس الجامعي أن تصور لك ذلك ببلاغة الأستاذ

الجامعي فهي عاجزة تمام العجز عن تصوير ما يمثله أمامك بوضوح هذا المتحف الذي ينسب للقرون الوسطى حيث عاش البشر على أساليب مغايرة في كل شيء لما يعيشه المرء اليوم ويحياه.

وإذا أسعدك الحظ ودخلت هذا المتحف فلا تتصور أنك ستشاهد معروضات متباينة تحتاج إلى علم المنقب للوصول بينها، بل ينبغي أن تدرك كل الإدراك أنك ستشاهد حياة مستقلة تمام الاستقلال ومعروضات مؤلفة متعاضدة في تفهيمك لما تريد إزاحة الستار عنه من خفايا ماضي المدينة، فهي معروضات تعتبر في علم الآثار حية لا تحتاج إلى كثير درس ولا إلى عناء بحث، لكي تلمس بيدك ما انطوت عليه من صور وألوان وتتصل مشاعرك بما يدور في خلدها.

ولعلي بعد هذا لا أضطر إلى التصريح بمكان المتحف لتقصده طائفة القراء وتستفيد من مجموعاته، فهذا المتحف غير بعيد المكان ولا غفل العنوان، وليست معروضاته بالغريبة عنا نحن المغاربة، فلنأنا إلا إياها، وليس هذا المتحف إلا مغربنا الواسع الأطراف المههد السبل.

نحن متحف القرون الوسطى، ولم لا نكون متحفا وكل شيء لدينا يمثل الماضي أغرب تمثيل ولا يتصل بالحاضر في شيء ولا يعبر عن أي اتجاه من اتجاهات المستقبل. نمثل الماضي ولكن أي ماض نمثل؟ وأية مرحلة من مراحل الإنسانية نحن متحفها؟

أرى من الواجب أن نكون صريحين في جولتنا القصيرة بهذا المتحف إلى أقصى حدود الصراحة، فالماضي الذي نمثل ليس هذا الماضي الحافل ولا تلك المرحلة التي اجتازتها أمتنا وهي تعدو وراء الرفعة وتصبو إلى المجد، بل هذا الماضي وتلك المرحلة التي ارتخت أعصاب الأمة المغربية فيها واقفة جامدة يسيرها التيار وتتلاعب بها الأمواج كأنما هي خشبة في البحر تقرب من الشاطئ ولكن أي شاطئ تراها مستسلمة إليه؟ أهو شاطئ العراك البشري، شاطئ النشاط والكفاح الشريف أم شاطئ الراحة المميتة والنوم المتواصل؟

لا ريب أن نظرة واحدة على معروضات متحف لا تلقى في ذهنية المرء إلا أننا لا نستيقظ بقدر ما يزداد سباتنا عمقا، ولا تتحرك لتتصل بعصرنا إلا حركة ضعيفة واهنة لا تشعر بديبها مهما تسمعت.

والآن نستعرض في إيجاز معروضات هذا المتحف التي هي مظاهر حياتنا والتي هي صور الماضي الذالعة: هذه تربية أولادنا موضوعة على المشرحة لنمعن النظر في عروقتها ولنفكر جيدا في نتائجها، أتراها على أسلوب من أساليب التربية الحديثة التي أمدنا بها علم العصر وخبرة التطور؟ أتراها تستمد شيئا من هذه المعرفة التي لا يستحق المرء حياة في زماننا دون أن يرتوى من ينابيعها الصافية ودون أن يتفهم مداخلها العميقة؟

أيكفي أن نحرم ونخرج من العدم الولد فيكون صورة عنا لا صورة عصره وعاملا من عوامل الخراب القاضي على كل شيء إذ ينطلق كحيوان حسبه أن يتابع غرائزه ويستسلم لتياراته النفسية، فإذا دخل المدرسة لا ينتج وإذا خرج منها ضل السبيل فهوى حيث تهوى كل جماعة لا تربية لها؟

وهذا مجتمعنا العائلي أتراه يتطور؟ أتراه شعر بما يحف به وأدرك أي جو يبسطه على النفس والإحساس، جو خانق يسم المرء فيصبح جثة فاقدة كل مقوماتها المعنوية؟ وهذه أفكارنا أي بون بينها وبين نظريات عصر الظلمات حيث ظل الإنسان مدة لا ينظر حتى في نفسه ولا يفهم معنى لوجوده كإنسان له حقوق وعليه مسؤوليات؟ ألسنت ترانا لا نزال نجادل في أبسط النظريات التي أصبحت بديهية ونعارض فيما سلمه الجميع وأيده الجميع؟

وهذه عاداتنا وتقاليدنا لا زالت في كل مظاهرها وكل أساليبها متوغلة في القدم، حريصة على صور جامدة لا تبين لك عن روح الماضي ولا حيوية الحاضر إذ تقوم بها جماعاتنا بصورة آلية دون أن تدرى مغزى لها ولا تتفهم سراعنا الأجداد لها.

وهذه أعمالنا أتراها خرجت من دائرة الفردية التي تسيطر على الأمم أحط مراحلها؟ أتراها

أصبحت منتجة كما تنتج أعمال العصر ومناسبة للتقدم العلمي ولازدهار المدينة في كل أمم  
العالم؟

بل قبل أن نتساءل هل تنتج أعمالنا ينبغي أن نفكر هل لنا أعمال. إننا نستهلك بعض  
إنتاج المدينة دون أن نساعد في إنتاجها إلا بصورة بسيطة تقارب الصور الأولى للمدينة.  
والآن لتقف جولتنا في هذا المتحف، فكل شيء يحويه جدير بالمشاهدة. كل ما تضمنه  
جدران المحيط والصحراء يعيش في الماضي الذابل، ولا يريد أن يعيش في عصره لأن  
نور العصر لم يلق بشعاعه بعد على هذه الأرض، فويل لأمة من جهلها.